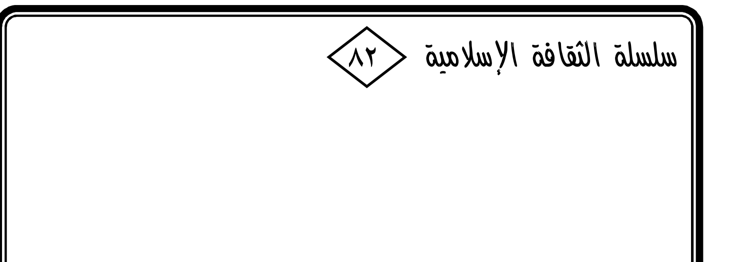




الشيخ محمد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

❊ ❊ ❊

محاضرة عامة عن دور الحوزات العلمية الإمامية في تطوير وتعميق الثقافة الإسلامية، ونشاطاتها التبليغية، والتربوية، والسياسية، والجهادية في العالم الإسلامي... أُلقيت في مؤتمر المدارس والحوزات العلمية في مسقط ـ عُمان.

اسم الكتاب: أضواء على الحوزات العلمية الإمامية الشيعية
المؤلف:....................................... محمّد مهدي الآصفي
تاريخ الطبع: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م
الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: ..... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ
مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ﴾

التوبة: ١٢٢

الحوزة العلمية الإمامية

في هذه الدراسة سوف أتحدث إن شاء الله عن أهم المكاسب والخبرات والتجارب والإنجازات التي حققته مدرسة أهل البيتعليهم السلام الفقهية في العراق وإيران وهما مدرسة (النجف) في العراق ومدرسة (قم) في إيران.

تاريخ المدرستين

يرجع تاريخ الجامعة العلمية في قم إلى الربع الأول من القرن الرابع الهجري في عصر البويهيين، عاش في هذه الفترة في قم والري علماء كبار أمثال الشيخ الكليني المتوفى ٣٢٩ هـ وابن بابويه المتوفى في نفس السنة، وابن قولويه المتوفى في سنة ٣٦٩ والشيخ الصدوق المتوفى عام ٣٨١ هـ وغيرهم من كبار المحدثين والفقهاء، وعليه فان تاريخ هذه الحوزة العلمية يرجع إلى أحد عشر قرناً، واستمرت هذه المدرسة منذ ذلك الحين إلى اليوم تمارس نشاطها العلمي في الحديث والفقه في مد وجزر.

ويرجع تاريخ الجامعة العلمية في النجف (العراق) إلى ٤٤٨ هـ أي منتصف القرن الخامس الهجري، عندما انتقل الشيخ الطوسيرحمه الله إلى النجف لما كُبس على داره ببغداد، وأخذ ما وجد فيها من دفاتره وكتبه، ومنذ ذلك الحين استمرت مدرسة النجف (بجوار الكوفة) في

ممارسة نشاطها العلمي إلى اليوم في مد وجزر كذلك، وهذه المدة تقارب الألف عام.

ولقد كتب نجم الدين المحقق الرضي الاسترابادي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ كتابه الكبير القيّم في شرح الكافية في النحو، وهو و(الكتاب لسيبويه) ندّان في هذا العلم.. كتبه في النجف قبل ٧٣٤ سنة وكتب في نهايته: قد تم تمامه في الحضرة المقدسة الغروية (في النجف)، على مشرفها صلوات الله العزة سنة ست وثمانين وستمائة.

والنجف وقم هما الجامعتان الفقهيتان الأم في مدرسة أهل البيتعليهم السلام وهما من أعرق الجامعات الإسلامية، أو الحوزات العلمية كما يسميها أبناء هذه الجامعة.

وقد أكسبت هذه العراقة التاريخية هاتين الحوزتين الكثير من الخبرة في القرآن والحديث والفقه، وهي أمهات العلوم في هاتين الجامعتين.

ولأن هاتين المدرستين كانتا تحتلان موقعاً سياسياً واجتماعياً في أوساط أتباع أهل البيت، فإنهما كسبتا خلال الفترة خبرة سياسية واجتماعية وعلمية وأخلاقية وتربوية كبيرة.

وسوف نعكس في هذه الدراسة إن شاء الله طرفاً من هذه الخبرة في المجال السياسي والاجتماعي من جانب، وفي المجال العلمي من جانب آخر، وفي المجال التربوي من جانب ثالث.

١. في المجال السياسي والاجتماعي

أ. الاستقلال السياسي:

ومن أهم هذه الخبرات الاستقلال السياسي لهذه المدارس عن الأنظمة والحكومات التي كانت تحكم هذه البلاد في فترات التاريخ المختلفة.

وذلك لأن مسؤولية الفقهاء والعلماء هي الرقابة العامة على كل المرافق والمؤسسات الاجتماعية ونقدها ومحاسبتها وعلى رأس هذه المؤسسات مؤسسة الدولة بكل أجهزتها ودوائرها الفرعية، فإذا تحولت الجامعة الدينية إلى مؤسّسة تابعة لمؤسسات النظام وملحقة بها لم تعد تملك القدرة الكافية على رقابة هذه المؤسسة والمؤسسات التابعة لها ونقدها، ولو تحول الفقهاء إلى موظفين في الدولة لم يملكوا القدرة على النقد والرقابة البتة.

ب. الاستقلال الاقتصادي:

والاستقلال السياسي يتبع الاستقلال الاقتصادي فلو كانت المؤسسة الدينية تابعة اقتصادياً لمؤسسة الدولة، لا تستطيع بالضرورة أن تحافظ على استقلالها السياسي... والقضيتان تؤلفان معادلة واحدة لا يمكن فصل بعضها عن بعض، والاستقلال الاقتصادي لا يتحقق إلا بالاكتفاء الذاتي.

وتعتمد حوزاتنا الفقهية ومساجدنا في إدارة شؤونها على الحقوق الشرعية من الزكوات والأخماس.

ويعتقد فقهاء الإمامية ان تشريع الخمس أوسع من خمس غنائم الحرب. وآية الخمس من سورة الأنفال: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾ لا تَخص خمس غنائم الحرب، كما يقول فقهاء الشيعة ولا مجال لبسط الكلام فيه في هذا المقال.

وقد صح عند الفقهاء من أهل السنّة من حديث رسول الله ﷺ إنه ﷺ كان يأمر بجباية خمس الركاز وغيره من الأموال.

والخمس والزكاة تغطيان مساحة واسعة من نفقات الحوزات والمدارس الدينية والمساجد والمؤسسات الثقافية التابعة للمؤسسة الدينية الكبيرة.

ثقة الجمهور وطاعتهم للفقهاء

يضع جمهور شيعة أهل البيت ثقة عالية في علماء مدرسة أهل البيت وفقهائها، ويبذلون لهم الطاعة، بدرجة عالية في السراء والضراء، عن وعي ومعرفة وبيّنة.

وقلما نجد نظيراً لهذه الثقة والطاعة من ناحية الجمهور للفقهاء، ولست أقول لا نجد، وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام يُعرفون بهذه الميزة ويشتهرون بها.

وسبب ذلك يعود أولاً إلى تعليمات أهل البيت(عليهم السلام) لشيعتهم بطاعة الفقهاء، والثقة بهم، والالتفاف حولهم، وقد تكرّر الأمر والتوصية بذلك من ناحية أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وهذه التعليمات أكسبت موقع الفقاهة عند الإمامية قيمة اجتماعية وسياسية كبيرة.

والعامل الآخر هو سلوك الفقهاء تاريخياً إلى اليوم، فإن المعروف منهم الإعراض عن الدنيا ومتاعها، والزهد فيها، وعدم الاستغراق في لذاتها وطيباتها أولاً، والاهتمام بشؤون الناس وهمومهم ومطالبهم ثانياً.

يقول أميرالمؤمنين(عليه السلام) في الخطبة الشقشقية في صفة العلماء: «وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»، أي: لا يسكتوا عن تخمة ظالم ولا جوعة مظلوم... وهذا الاهتمام بشؤون الناس والمراعاة لحقوقهم والدفاع عنهم في مواجهة الظالمين، بالإضافة إلى ما عرف عنهم تاريخياً من الإعراض عن الدنيا والزهد فيها... من عوامل طاعة الناس لهم وثقتهم بهم ومحبتهم لهم، وهذه الحالة لا تزال إلى اليوم باقية، وان كان يصيبها مدّ وجزر أحياناً.

ومن الأحداث المعاصرة في تاريخ مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) الفتوى الذي أصدره الفقيه الشيعي الكبير الميرزا حسن الشيرازي(رحمه الله) في سامراء (من مدن العراق) بتحريم استعمال التبغ في عهد حكومة الملك ناصر الدين القاجار، فقد حرّم الفقيه

الشيرازي استعمال التبغ على المسلمين بعد أن أعطى الشاه في إيران حق احتكار التبغ لشركة انجليزية، تستأثر به في أطماعها الاستثمارية، فامتنع المسلمون في إيران جميعاً عن استعمال التبوغ، استجابة لحكم الفقيه، فلما طلب الشاه من زوجته داخل قصره أن تأتي إليه بما اعتاده من شرب التبغ يومياً امتنعت، فلما زجرها قالت له: الذي أحلّني عليك حرّمها عليّ.

لقد كانت هذه الثقة الغالية والطاعة النادرة بمثابة عتلة قوية استخدمها الإمام الخميني(رضي الله عنه) في حياتنا المعاصرة في الإطاحة بنظام البهلوي الملكي الفاسد وإقامة دولة إسلامية محله، ولولا هذه الثقة وهذه الطاعة النادرة لم يكن مثل هذه الثورة العامة بمقدور أحد من الناس.

وليس من شك أن هذه عطية إلهية جليلة، حبا الله بها الفقهاء، وعليهم المحافظة عليها، والمحافظة عليها تكون بالمحافظة على مسيرة السلف الصالح من الفقهاء، بالإعراض عن الدنيا والزهد فيها، والاهتمام بهموم الناس، ومعايشة الناس في سرائهم وضرائهم، وعدم حجب الناس عنهم، والاهتمام بقضايا الجمهور السياسية، وعدم الخضوع لابتزاز الأنظمة، ونفوذ أنظمة الاستكبار العالمي، فإن الجمهور يحمل فطرة سليمة في التقييم والتقدير، يضع الثقة حيث تجب الثقة، وتحجب الثقة حيث لا يستحق الثقة، فإذا حجب الجمهور ثقته عن شخص فالأحرى به أن يراجع نفسه وعمله قبل

أن يـتهم النـاس فـي إقبـالهم وإعراضـهم، أو يشـك فـي سـلامة تقديرهم، فقد دلتنـا التجـارب الكثيـرة، إنّ الله تعـالى زوّد جمهـور المؤمنين بحسّ مرهف دقيق في التوثيق والتقييم.

الدفاع عن قضايا المسلمين

لقد وجدنا الفقهاء خلال تاريخنا المعاصر في المقدمة من خـط المواجهة في كل القضايا السياسية المصيرية التي تتعـرض لـه بـلاد المسلمين.

ففـي ثـورة العشـرين فـي العـراق، قـاد فقهـاء النجـف جمهـور العراقيين لطرد الانجليز من العراق.

وفي ثورة الدستور في إيران، قاد العلماء الجمهور إلى المطالبـة بالدستور في إيران.

وتحرك الإمـام الحكـيم فـي وجـه المـد الأحمـر الشـيوعي فـي العراق.

ونهـض العلمـاء بقيـادة الإمـام الخمينـيﷻ لإسـقاط حكومـة البهلوي الفاسدة.

وقاد العلماء انتفاضة الشعب العراقي ضد النظام الدكتاتوري لحزب البعث، وقد قدّمت الحوزة العلمية في النجف الأشرف في عهد النظـام البائد مئات الشهداء من العلماء والخطباء وطلبة العلوم الدينية.

ولم يقتصر اهتمام فقهاء أهل البيت بالقضايا التي تخصّ الأقطار

ذات الأغلبيـة الشـيعية، وإنمـا كـانوا يحملـون همـوم قضـايا العـالم الإسلامي في شتى أقاليم المسلمين، مثل قضية الجزائر، وفلسـطين، وكشمير، والبوسنة والهرسك، والشيشان، وأفغانستان، وغزّة، ولبنـان وسائر الجروح في جسم العالم الإسلامي المثخن بالجراح.

ولا يختلف عندهم أن يتعرض للظلامة شيعي أم سني، فالمسألة عندهم الإسلام والكفر.

وقد رأينا وقـوف علمـاء الشيعة بكلمـة واحـدة أمـام الاحـتلال الانجليزي إلى جانب العثمانيين عنـدما اشـتبكت القـوات العثمانيـة والانجليزية في حروب ضارية في العـراق، وكانـت غايـة الانجليـز إخراج آل عثمان من العراق.

والذين يعرفون تاريخ العراق المعاصر يعرفون ماذا لقي شيعة العـراق وهم أكثرية الشعب، من ظلم آل عثمان وعدوانهم خلال فتـرة حكمهـم فـي العـراق... ومـع ذلـك لمـا جـدّ الجـدّ واشـتبكت الجيـوش العثمانيـة بالجيوش الانجليزية في العراق هبَّ علمـاء الشـيعة فـي العـراق لمواجهـة الانجليز وتبعهم الناس كافة، سنة، وشيعة، وكان القائد التركي يقول عـن ساحة المعركة: كلما ضاقت بنا الحرب واشتدت بنا الأزمات، كنت انظر إلى خيمة فقيه الشيعة شيخ الشريعة الأصفهاني في قلـب المعركـة تحـت وابل الرصاص وهو ثابت مطمئن فـي شـيخوخته وعجـزه، فاكتسـب منـه القوة والطمأنينة والثقة في الموقف العسكري.

الدعوة إلى التقريب

ومن اهتمامات فقهاء الشيعة الدعوة إلى وحدة المسلمين وملء الفجوات التي أحدثها أعداء الإسلام فيما بين المسلمين، والعمل الجاد لتوحيد الرأي والموقف السياسي في كل القضايا الأساسية التي تهم العالم الإسلامي، وإزالة التشنج في الخلافات التاريخية والعقائدية والفقهية بين المسلمين، وليس معنى التقريب أن يتحول السني إلى الشيعي ولا العكس، ولكن معنى التقريب إزالة التشنج والحدة من هذه الخلافات أولاً، وطرح المسائل العلمية التي يختلف فيها المسلمون في ضوء البحث العلمي الموضوعي النزيه ثانياً، كما يتفاهم فقهاء المذهب الواحد فيما بينهم، والبحث عن المفاهيم المشتركة، والتصورات المشتركة، والأحكام والقواعد المشتركة، والأصول الفقهية المشتركة، والأحاديث المشتركة، لتكون قاعدة للتلاقي بين المسلمين ثالثاً، ورابعاً: السعي الجاد لتوحيد الموقف السياسي في القضايا الإسلامية الأساسية مثل قضية فلسطين وأفغانستان والعراق وسائر مصائب المسلمين.

وقد أثّرت الأعمال الكبيرة التي نهض بها فقهاء أهل البيت في إيجاد أرضية واسعة وخصبة للوحدة الإسلامية.

فمن الناحية العلمية دوّن علماء الشيعة مدوّنات واسعة في الحديث المشترك، والأسانيد الروائية المشتركة بين الشيعة والسنة،

والتفسير المقارن والحديث المتفق عليه، والفقه المقارن بين الشيعة والسنة، والأصول المقارن، والقواعد الفقهية المقارنة.

كما كتب السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله كتاباً في تحديد عنوان (الإسلام)، وحرمات المسلمين التي لا يجوز انتهاكها بحال، وسمّاه (الفصول المهمة في تأليف الأمة)، وهو كتاب قيّم يحسن بكل دعاة التقريب قراءة هذا الكتاب، الذي استقى المؤلف مفاهيمه من الكتاب الكريم، وما صحّ من السنة الشريفة عند الشيعة وأهل السنة.

كما كان للإمام كاشف الغطاء جولات واسعة في سبيل توحيد كلمة المسلمين، ومؤلفات و خطب ومقالات كثيرة.

وكان الإمام السيد حسين البروجردي الزعيم والمرجع الديني المعروف من دعاة التقريب، وممّن ساهم في تشييد صروح التقريب، وكان بينه وبين الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ جامع الأزهر مراسلات وتفاهم في أمر التقريب.

وللمرجع الديني المعاصر السيد علي السيستاني(حفظه الله) اهتمام بليغ بأمر التقريب، وقد استطاع بفضل اهتمامه بأمر التقريب أن يحفظ إلى حدود كبيرة الانسجام والتفاهم الإسلامي للشعب العراقي في ظروف صعبة للغاية وبين فتن طائفية مثيرة ومدبّرة، رحم الله الماضين، وحفظ لنا الباقين.

٢. في مجال الدراسات الفقهية

انفتاح باب الاجتهاد

لأن فقهاء مدرسة أهل البيت لم يغلقوا باب الاجتهاد قط، واستمرت حركة الاجتهاد في حلقات متصلة، متواصلة في مدرسة أهل البيتعليهم السلام... هيأت هذه الحركة فرصاً جيدة لتكامل ونضج وتطور الآليات الفقهية للاجتهاد في هذه المدرسة.

الآليات الفقهية للاجتهاد في هذه المدرسة

ظهر خلال هذه الفترة فقهاء كبار أحدثوا تغييرات واسعة في منهج الاجتهاد وتطويره، وظهرت مدارس فقهية جديدة مكّنت الفقهاء من ممارسة الاجتهاد بدرجة عالية من الكفاءة والدقة، والفرز الدقيق لموارد استخدام الأدلة والحجج.

وفيما يلي نشير إلى بعض هذه النقاط بصورة إجمالية ونترك البحث التفصيلي والفني عنها إلى مواضعها:

١. الموازنة بين العقل والنقل:

(النص) هو المصدر الأساسي للاجتهاد بلا شك، سواءً كان النص من الكتاب، أم من السنة.

غير أن نصوص السنة لابد أن تناقش من حيث السند بصورة دقيقة، لتمييز الصحيح منها عن غير الصحيح.

والفقيه يتعامل مع النص من منطلق الحجية والتعبد، ولا يصحّ له أن يتجاوز النص، أو يطوّع النص لرأيه، أو يحمّله على غير معناه الصريح إذا كان نصّاً في معناه، أو على غير معناه الظاهر، إن كانت الآية أو الرواية ظاهرة في معناها، ولم تكن نصّاً.

ولا اجتهاد في مقابل النص، وكل اجتهاد أو رأي في مقابل النص فهو باطل البتة... ولا يلجأ الفقيه إلى الاجتهاد إلا عند فقدان النص أو إجماله أو تعارض النصوص.

وعليه فان النص هو المصدر الأساس للفقيه في فهم الحكم الشرعي... وهذا هو الجانب النقلي من الاجتهاد، وهو البعد الأول والأهم في الاجتهاد، وإلى جانب هذا البعد البعد العقلي في الاجتهاد.

وللعقل ثلاثة أدوار في عملية الاجتهاد في مدرسة أهل البيتعليهم السلام:

الدور الأول هو حكم العقل بالحسن والقبح، مثل حكم العقل بقبح الإضرار البليغ بالنفس، من دون مبرّر عقلائي (مثلاً).

وهذا هو حكم العقل العملي، لتعلّقه بموضوع عملي وهو الإضرار بالنفس.

فإذا ضممنا إلى هذا الحكم حكم العقل بالتلازم بين ما يحكم به العقل وما يحكم به الشرع.. وهو حكم العقل النظري بالتلازم بينهما، لامتناع أن يسمح الشرع أو يأمر بما يقطع العقل بقبحه وفساده، أو ينهى الشرع عما يقطع العقل بضرورته وحسنه.

.. ينتج من ضم هذين الحكمين العقليين (العملي والنظري) حكم ثالث وهو حكم الشرع بحرمة الإضرار البليغ بالنفس من دون وجود مبرر عقلائي لذلك.

ويسمّي الفقهاء هذا النوع من البرهان العقلي بـ (الأدلة العقلية المستقلة، أو المستقلات العقلية).

والدور الثاني للعقل في عملية الاستنباط هو استخدام العقل في استنباط الأحكام الشرعية بعد ضم مقدمة شرعية إلى الحكم العقلي.. وهذه هي (الأحكام العقلية غير المستقلة).

وذلك مثل إدراك العقل للملازمة بين وجوب شيء ووجوب مقدماته أو استلزام حرمة شيء لحرمة مقدماته التوليدية أو استلزام وجوب شيء لحرمة ضده عقلاً (مثلاً).

فإن هذه الأحكام العقلية لا تؤدي إلى استنباط حكم شرعي ما لم ينضم إليها حكم شرعي بوجوب شيء، مثلاً الصلاة.

فإذا ضممنا إلى الأحكام العقلية المتقدمة حكم الشرع بوجوب الصلاة حكم العقل بوجوب مقدمات الصلاة وحرمة ضدها.

وتطبيقات هذا النوع من القواعد العقلية واسعة في الفقه والأصول مثل مباحث مقدمة الواجب ومباحث الضد، وبحث الاجزاء، ومباحث اجتماع الأمر والنهي، ومباحث النهي في العبادات، ومباحث المفاهيم وغيرها.

والدور الثالث للعقل في الاجتهاد هو استخدام الأصول العقلية

كالبراءة والاشتغال العقليين، وهي وظائف عقلية يقررها العقل للمكلف في ظرف فقدان الدليل الاجتهادي الشرعي أو الأصول العملية الشرعية، وهو آخر ما يلجأ إليه الفقيه، في موارد الشك البدوي أو الشك المقرون بالعلم الإجمالي.

وهذه الاستخدامات الثلاثة للعقل تغطي مساحة واسعة ويتم تقنينها في علم الأصول بصورة متقنة ودقيقة وقطعية.

٢. الموازنة بين الأُصولية والتطوير:

الأصولية هي الصيغة العامة للاجتهاد، والفقيه المتمرّس في الفقه يعطي قيمة كبيرة لكلمات الفقهاء المتقدمين وللاجماعات الفقهية التي يركن إليها الفقيه في الاستنباط وحتى للمرتكزات الفقهية ولسيرة المتشرعة.

ويحافظ الفقيه على المنهج الفقهي المألوف والموروث، ويعتبر هذا النهج أساساً صحيحاً للاستنباط تركن إليه النفس.

وإلى جنب هذه الصيغة الأصولية العريقة في الاستنباط، والتي توليها الحوزات العلمية التابعة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام اهتماماً كبيراً... نجد أن هناك سعياً جاداً لتطوير آلية الاستنباط.

والذي يتبع التطوّر العلمي الحاصل في هذه المدرسة، يجد أن فقهاء هذه المدرسة اكتشفوا خلال عملهم العلمي آليات جديدة في عملية الاستنباط.

واضرب على ذلك مثلاُ تقسيم الفقهاء الأدلة والحجج في

أصـول الفقـه إلـى طـائفتين: (الأمـارات) و(الأصـول) ويـتم تنظـيم العلاقة بينهما من خلال قاعدتي (الحكومة) و(الورود).

وإذا عرفنا أن ترتيب الأدلة من المسائل الأساسيّة التي يواجهها الفقيـه في عملية الاستنباط ويحوج الفقيـه إلـى نظام واحـد فـي الفقـه، لتقـديم الأدلـة بعضـها علـى بعـض، ولا يمكـن الاكتفـاء بالعلاجـات والحلـول الموضعية... نعرف قيمة هذا الكشف العلمي الذي توفق لـه شـيخ فقهائنـا المعاصرين الشيخ الأنصاري رحمه الله لأول مـرة فـي تـاريخ الفقـه، وتترتـب على هذا الكشف آثار كبيرة في تقديم الأدلة بعضها على بعض.

وإليكم بعض التوضيح لهذه النقطة في حدود ما يمكن إيضاحه في هذا الاستعراض العام لهذه المسائل الفنيّة الدقيقة بلغة غير فنية.

التفكيك بين الأدلة والأصول:

يفرّق الفقهاء في المنهج الأصولي المعاصر في هذه الدراسة بين نوعين من الدليل، وهما:

الدليل على الحكم الشرعي.

والدليل على الوظيفة الشرعية عنـد افتقـاد الـدليل علـى الحكـم الشرعي، أو إجماله وتعارضه.

ومهمة الدليل الأول تختلف عن مهمة الدليل الثاني.. فإن الدليل الأول يكشف للفقيه الحكم الشرعي مباشرة بموجب حجـة قطعيـة من ناحية الشـارع، وبـذلك يكـون الـدليل كاشـفاً للحكـم الشـرعي

والاستناد إليه يكون مـن الاسـتناد إلـى الحجـة، ولـيس مـن الأخـذ بالظن الذي نهينا عنه. وذلك مثل روايـة الحـديث عـن الثقـات عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله، و(الإجمـاع) فإنهمـا دلـيلان كاشـفان عـن الحكـم الشرعي وثبتت حجيتهما بدليل قطعي من ناحية الشـارع، والاسـتناد إليهما في استنباط الأحكام من الاستناد إلى الحجة اليقينية.

أمـا النـوع الثـاني مـن الـدليل الثـاني فهـو دليـل علـى الوظيفـة الشرعية، أو الوظيفة العقلية عند فقدان الأدلة الكاشـفة عـن الحكـم الشـرعي أو إجمـال الـدليل الشـرعي، أو تعـارض الأدلـة الشـرعية وتساقطها بالتعارض (بمعنى وظيفة المكلف شرعاً أو عقلاً في حال الجهل بالحكم الشرعي).

ويسـمى علمـاء الأصـول المعاصـرون النحـو الأول مـن الأدلـة بالأمارات أو (الأدلة الاجتهادية) والنوع الثاني من الأدلـة بالأصـول أو (الأدلة الفقاهتية).

ولهذا التفكيك بين هذين السنخين مـن الأدلـة آثـار كبيـرة فـي الفقه، في تقديم الأدلة بعضها على بعض.

فإنّ من الواضح إن النوع الثاني من الأدلة يقع في امتـداد النـوع الأول من الأدلة، لأن استخدامه يتوقف على فقدان الأدلة من السنخ الأول، أو إجمالها أو تعارضها، ومع وجـود دليـل مـن السـنخ الأول كالروايـة الصـحيحة والإجمـاع لا يمكـن التمسـك بالأصـول مثـل الاستصحاب أو البراءة.

كما أن الفقهاء وضعوا قواعد لتقديم الأصول بعضها على بعض.

ومن هذا المنطلق بدأت تختمر عند علماء الأصول في هذه المدرسة فكرة تفكيك الأمارات عن الأصول والتفريق بين هذين النوعين من الأدلة، وفرز بعضها عن بعض.

واتخذ الشيخ الأنصاري شيخ أعلام هذه المدرسة المتأخرين من هذا التفكيك أساساً لمنهجة جديدة في علم الأصول تماماً، وتناول الآثار العلمية المترتبة على هذا التفكيك بشكل عميق ودقيق، وخرج بتصورات وأفكار جديدة في علم الأصول تماماً.

تنظيم العلاقة بين الثابت والمتغير:

إن الاجتهاد عملية صعبة، يتعهّد بتطبيق الثابت على المتغير، فان شريعة الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وظروف الحياة الاجتماعية متغيرة شديدة التغيير، ومهمة الاجتهاد هي تطبيق ثوابت الشريعة على متغيرات الحياة، وهي مهمة شاقة تحتاج إلى جهد متواصل في تطوير آلية الاجتهاد ليكون قادراً على تحقيق هذه المهمة.

٣ـ الموازنة بين (حرية الرأي وانفتاح باب الاجتهاد، وبين الالتزام بالحجة وضوابط الاجتهاد).

اشتهر فقهاء مدرسة أهل البيت بالانفتاح على الآراء المختلفة، وقبول تعددية الرأي في الفقه، ولم ينغلق باب الاجتهاد في هذه

المدرسة قط، وقد أثمر هذا الانفتاح ثمرات طيبة في تنامي وتكامل الدراسات الفقهية.

وتتميز الدراسات الفقهية في الحوزات العلمية التابعة لهذه المدرسة بإفساح المجال لمناقشة الرأي الآخر وحريّة إبداء الرأي، والنقاش العلمي يجري على كل الأصعدة بين الطلبة والأساتذة وبين الطلبة أنفسهم، وبين الفقهاء وأساتذة الدراسات العليا على أعلى المستويات.

ويتناقل الطلبة أجواء هذا النقاش وقناعاتهم العلمية، ويتمخض هذا النقاش عن تكامل حركة الاجتهاد.

يُقال: إن فقيهين معاصرين هما الفقيه المحدث البحراني رحمه الله صاحب الموسوعة الفقهية (الحدائق الناضرة) في الفقه، والفقيه الأصولي الوحيد البهبهاني رحمه الله صاحب كتاب (الفوائد الحائرية) تلاقيا بعد صلاة العشاء في ساحة الحائر الحسيني بكربلاء، فأخذا في نقاش مسألة فقهية حتى آن وقت إغلاق أبواب الروضة، فطلب منهما سادن الروضة أن يخرجا عن ساحة الروضة فخرجا، ووقفا خارج ساحة الروضة، وهما يواصلان النقاش في نفس المسألة، فذهب السادن إلى بيته للنوم ولما عاد فجراً لفتح أبواب الجامع لصلاة الفجر سمع من بعيد نقاشهما كما تركهما عند غلق الأبواب، فذكّرهما بقرب دخول وقت صلاة الفجر فرجعا إلى الجامع للاستعداد للصلاة.

ويؤاخذ البعض حالة الانفتاح على الرأي الآخر، وحرية النقاش

في هذه الحوزات بالمبالغة في الانفتاح... ومهما يكن نصيب هذه المؤاخذة من الصحة، فإن أمثال هذا الانفتاح وحرية إبداء الرأي والمناقشة ضمن ضوابط الاجتهاد، يؤدي إلى تنضيج وتكامل هذه الحركة.

ونحن من خلال التجربة الطويلة في هذه المدارس نعرف جيدا أن هذه الحرية في نقد الرأي، والانفتاح على الرأي الآخر، يتم ضمن ضوابط الاجتهاد الدقيقة... ووجود هذه الضوابط يحفظ حركة الاجتهاد من الانفراط والخروج عن الحدود، ولذلك استمرت حركة الاجتهاد في مدرسة أهل البيتعليهم السلام بين المحافظة على التراث والمعاصرة وبين الأصولية والتطوير، ولم تخرج هذه الحركة عن الخطوط العامة المقبولة في هذه المدرسة.

الاستناد إلى الحجة

إن القيمة العلمية في هذه المدرسة للحجة فقط، وما لم يعتمد الرأي على الحجة القطعية لا يكون مقبولاً ولا صواباً، والشك في الحجية يساوق القطع بعدم الحجية.

إذن لابد أن يستند الرأي أخيراً إلى الحجة حتى يكتسب الصفة العلمية، وهذه القاعدة تحفظ حركة الاجتهاد في هذه المدرسة عن الزيغ والخطأ، في الوقت الذي تحرص فيه هذه المدرسة على فسح المجال للتعددية في الرأي الفقهي وتلاقح الآراء والأفكار.

٣. في المجال التربوي

للعلماء موقع حساس آخر في هذه الأمة، وهو موقع التوجيه والتثقيف والتربية والإصلاح.

وليس العلم كل شيء في شخصية العالم الديني، الذي يتخرج من الحوزات العلمية، وإنما هو أحد شطري شخصية العالم الديني، والشطر الآخر والأهم في هذه الشخصية هو الخلق الإسلامي وتهذيب النفس، وما لم يكتسب العالم الديني هذه الخصال الحميدة لا يستطيع أن يؤدي حق العلم، فان الناس يأخذون من العالم خصاله الحميدة أكثر مما يستمعون إليه، ويقتبسون من عمله أكثر مما يُصغون إليه... وقد روي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه كان يقول لأصحابه: «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم».

ومهمة العالم الديني ليس هو التعليم فقط، وإنما التعليم والتزكية معاً في امتداد خط الأنبياءعليهم السلام، ﴿**يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾. ولا تتيسر التزكية للعالم الديني إلا إذا كان مُعَلِّم التزكية هو على درجة عالية من التزكية.

ولذلك فان منهج التهذيب والتزكية في مقدمة المناهج والأعمال التي تعنى بها الحوزات العلمية التابعة لمدرسة أهل البيتعليهم السلام... ويدخل شباب الطلبة من بلاد شتى، ومن أمزجة وأخلاق وسلوكيات نفسية متعددة في الحوزة العلمية فتصهرهم الحوزة العلمية، في أجوائها خلال

سـنوات عديـدة، وتطـبعهم بطابعهـا الخـاص، فيغلـب علـيهم الخشـوع، والتفكير، وخشية الله، وحب العبادة، والاشتغال بذكر الله، والتقوى.

وطبيعي أن يكون ذلك بدرجات مختلفة، ولـيس كلهـم يبلغ القمّـة فـي ذلـك، إلاّ أنهـم جميعـاً يسـلكون هـذا الطريـق، وتصـهرهم الحـوزة بحرارتها التربوية العالية، إلا من شذ منهم.

ومن الطبيعي أن هذه الحالة من الانصهار قد هبطت بنسبة ما مع التوسع الكبير الذي حصل أخيراً للحوزة، ولم يعد اليوم كمـا كـان قبل خمسين سنة، ولكنها باقية إلى الآن وفاعلة، ومؤثرة وان كانـت دون الطموح.

ويدرس اليوم أساتذة الحـوزة طريقـة معالجـة هـذا الهبـوط الروحـي النسـبي فـي نفـوس الطلبـة فـي ظـروف التوسّـع الكمـي الـذي اكتسـبته الحوزات العلمية في السـنين المتـأخرة وتنعقـد لـذلك مـؤتمرات ولجـان عمل لتحقيق الطموح الذي تطمح إليه الحوزة العلمية في أبنائها.

وثمرة هذا الجهد التربوي الذي تهتم به الحوزات العلمية، ثمرة طيبـة فقد أنشأت هذه الحـوزة عبـاداً صـالحين لله، رزقهـم الله حظـاً كبيـراً مـن تهذيب النفس وتزكيتها، وأذاقهم حلاوة ذكره، وشـغلهم بـذكره تعـالى عن غيره، **﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾**، يـدخلون معنا في سـاحات حياتنـا فـي السـوق، والمـدارس، والـدوائر، والشـوارع، ويعيشون كسائر النـاس، إلا أن شـيئاً مـن ذلـك لا يشـغلهم عـن ذكـر الله تعالى، ويصح فيهم بشكل دقيق حديث الحاضر الغائب، فهـم حاضـرون

في مجامع الناس بأبدانهم وغائبون عنها بقلـوبهم، حاضـرون فـي مجـامع النـاس بأبـدانهم لأداء المهمـات التـي ألقاهـا الله تعـالى علـى عـواتقهم، غائبون عنها، لأن قلوبهم معلقة بعز قدسه، ومشـغولة عـن النـاس، وهمـوم الحياة بذكر الله، وشغوفة بحب الله، وشائقة إلـى لقـاء الله، وخائفـة وجلـة من عقوبة الله، ومولهة بجمال الله وجلاله.

وأمثال هؤلاء متواجدون في هـذه الحـوزات، رجـالاً ونسـاء، وشـباباً وشيوخاً، ولو خليت ـ كما يقال ـ لقلبت، وليـتكم تـرونهم وهـم يقومـون بـين يـدي الله فـي الأسـحار خاشـعين للصـلاة، فتجـري دمـوعهم علـى خـدودهم وتسـمع زفيـرهم وأنيـنهم، ونشـيج بكـائهم، أو تـرونهم وهـم سجود بين يـدي الله، يحنّـون إلـى ربهـم حنـين الوالـه المشـتاق، وترتعـد فرائصهم من خشيته، وتخشع جـوارحهم وجـوانحهم بـين يـدي الله رب العالمين... ولو رأيتهم في صلاتهم في الأسحار لشغلك ذلـك عـن نومـك وصلاتك ووددت لو يطول بك هذا المشهد، ولا ينفتح ظلام الليـل علـى الإصباح.

ومن هـذه المنـاهج مـنهج التأمـل والتفكيـر، والاسـتغراق فـي التأمـل والتفكير، ومن مسالك التأمـل والتفكيـر مسـلك التأمـل فـي الـنفس، فـإن التأمل في النفس من أفضل مداخل التفكير في الله وذكر الله، وقـد جعـل القرآن الكريم التفكير فـي الأنفـس قبـل التفكيـر فـي الآفـاق، وكلاهمـا هاديان إلى الله، ولكن التفكير في الأنفس أسرع وصولاً بالإنسان إلـى الله من التفكير في الآفاق، رغم أن أياً منهما لا يغني عن الآخر بالضرورة.

ومن هذه المناهج منهج الذكر والعبادة والاشتغال بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن، وهو من أهم هذه المناهج وأكثرها شيوعاً.

ولسنا نقصد بالنهج الأول الاشتغال بالتأمل والتفكير عن العبادة والعمل، فهذا ما لا تسوّغه روح هذا الدين، ولكن أقصد بمنهج التفكر والتأمل أن تكون الصيغة العامة للمنهج هو التفكر والتأمل... وأما المنهج الثاني فهو الاستغراق في الصلاة والدعاء، والذكر، وهؤلاء يدأبون في تلاوة القرآن والدعاء، وقيام الليل والمواظبة على النوافل، ويعشقون الليل عشقاً، فإذا حلّ بهم الليل، وهدأت من حولهم الأصوات، وغلقت الأبواب، وذهب الناس إلى مضاجعهم، قاموا إلى صلاتهم كما يقول ربنا تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، فلا تستقر جنوبهم على المضاجع حتى يهبّوا إلى عبادة الله.

ولليل دولة وللنهار دولة، وكلتاهما دولة الصالحين، وهناك أبطال لدولة الليل رجالاً ونساءً، وهناك أبطال لدولة النهار، وأبطال دولة النهار لابد لهم من دولة الليل حتى يتمكنوا من القيام بأعباء عبودية الله تعالى وطاعته والدعوة إليه في النهار، وأبطال دولة الليل لابد لهم من دولة النهار، حتى لا تعزلهم دولة الليل عن الانصراف إلى مسؤولياتهم في النهار، فإذا تكاملت دولة الليل ودولة النهار عندئذ يتكامل الإنسان ويؤدّي حق هذين الشطرين العظيمين من حياته.

والعلماء أمراء دولة الليل والنهار، ولذلك يجب عليهم أن يحرصوا على أن يعطوا حق الليل والنهار بشكل كامل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أما الليل فصافون أقدامهم يرتّلون القرآن ترتيلاً، ويستثيرون به دواء دائهم... أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح».

ومن مناهج التربية والتزكية ترويض الجسم والنفس، ومن مفردات الترويض الصيام، والكف عن لذائذ الطعام، والكف عن الاستغراق في النوم... وبين الجسم والروح علاقة عكسية فكلما بالغ الإنسان في لذات جسمه، حتى المحلّلة منها تضاءل حظه من المعرفة، والبصيرة، والخشوع، والإنابة، والدعاء، والمناجاة...

وهو رزق تتلقاه النفوس من عند الله، كما تتلقى الأجسام المطاعم، والمشارب، والمناكح من عند الله، وكل منهما رزق الله، ولكن الإكثار من الأول يؤدي بصورة قهرية إلى تحجيم وتحديد حظ الإنسان من الرزق الثاني، ولابد للإنسان من رعاية الجسم، والمحافظة عليه، وتطبيبه بما خلق الله تعالى له من الطيبات والعلاج، فان الجسم مركب الروح والنفس، ومن دون الجسم لا يستطيع الإنسان أن يبلغ ما أراد الله تعالى له من السعي والكدح إلى جنابه الكريم، ولكن بشرط أن لا يبالغ الإنسان في ذلك، وبشرط أن يأخذ الإنسان نفسه ببعض التضييق والتشديد في لذاته، حتى يفتح الله تعالى عليه لذات الروح والنفس، ولذات الروح والنفس لا تضاهيها لذة لمن طعم هذه اللذات.

الانفتاح العلمي المعاصر للحوزات العلمية الشيعية:

تحفل الحوزات العلمية الشيعية (الإمامية) بانتاج علمي واسع في مختلف حقول الثقافة الاسلامية وفي مقدمتها الدراسات والابحاث التخصصية في الفقه والأصول.. وهما من أهم التخصصات في هذه الحوزات.

فقد أنتجت المدرسة الفقهية والأصولية المعاصرة في الحوزتين العلميتين في النجف الأشرف في العراق وفي الحوزة العلمية في (قم) في إيران مئات العناوين من الكتب في الفقه والأصول تتضمن بعض هذه العناوين موسوعات كبيرة وقيمة في الفقه والأصول تتناول المسائل الفقهية والأصولية بعمق واستيعاب لا نظير لهما في الدراسات الفقهية المعاصرة.

وفي غير هذين المجالين تحفل الحوزات العلمية بإنتاج واسع في مجال تفسير القرآن الكريم، وعلوم القرآن، والموسوعات الحديثية، والدراية والجرح والتعديل (الرجال) والفلسفة، والأخلاق والعقائد، والتاريخ، والسيرة، والدراسات الفكرية الحديثة.

وليس بوسعنا الآن أن نقدم صورة إحصائية للإنتاج العلمي الضخم الذي تنتجه هذه الحوزات في الوقت الحاضر.

وبين يدي الآن وأنا أكتب هذه السطور قائمة بالأطروحات العلمية للدراسات العليا في المركز العالمي للدراسات الإسلامية في الحوزة

العلمية في قم، وهو واحد من المراكز العلمية العديدة في هذه الحوزة المباركة وتتضمن القائمة ٢١٢٧ رسالة علمية في الفقه والأصول والتفسير والعقائد في الفترة الواقعة بين سنة ١٣٨٠ ــ ١٣٨٥ هجرية، من نتاج متخرجي هذا المركز العلمي.

الانفتاح العالمي على الحوزات العلمية الامامية:

كانت الجامعة الإسلامية الكبرى في النجف الأشرف في العراق قبل أن يقدم حزب البعث على تخريب هذه الحوزة المباركة وتفتيتها وإدخال الرعب عليها واغتيال وإعدام فقهائها.. أقول: كانت الجامعة الإسلامية في النجف الأشرف تحفل بشباب المسلمين المقبلين على الدراسة بجوار مرقد أميرالمؤمنين عليه السلام من بلاد إسلامية شتى من إيران وأفغانستان وتركيا وسوريا ولبنان وباكستان والهند وبنغلادش وبلاد آسيا الوسطى مثل آذربايجان ونخجوان وأيروان وتبت وغيرها.

إلا أن المؤامرة الصليبية التي تمت على يد حزب البعث أدى إلى إفراغ النجف من كثير من كفاءاتها الفقهية والعلمية والأدبية وتخريب العشرات من مدارسها ومكتباتها العامرة.. ولولا جهاد فقهاء النجف وصمودهم في تلك الفترة الصعبة لم يبق من هذه الحوزة العريقة شيء، إلاّ أن الله تعالى حفظ هذه الحوزة المباركة من كيد العابثين، وتمارس اليوم نشاطها الفقهي والعلمي والتبليغي والسياسي بشكل واسع، وتستعيد عافيتها ومركزيتها العالمية إن شاء الله بعد العمليات التخريبية الواسعة

التي طالت هذه الحوزة على يد حزب البعث الصليبي في العراق.

وقد كان نظام بهلوي الفاسد في إيران يعمل بنفس الاتجاه الذي كان يعمل به حزب البعث في العراق، لتخريب الحوزة العلمية في قم وتعطيلها وإدخال الرعب فيها فلما أن أذن الله تعالى بنهاية هذا النظام الفاسد على يد الثورة الإسلامية الكبرى التي قادها الإمام الخميني﵀ انفتحت أقاليم العالم الإسلامي على هذه الحوزة المباركة، وأقبل شباب المسلمين من القارات الخمسة للدراسة فيها وحسب الإحصائيات الرسمية الموجودة عندنا يدرس الآن في هذه الحوزة من شباب العالم الإسلامي ما يقرب من تسعين قطراً من أقطار العالم ذكوراً وأناثاً، من القارات الخمسة وفي مقدمتها البلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا بالإضافة إلى توافد الشباب من القارات الثلاثة الأخرى (أوروبا وأمريكا واستراليا) للدراسة في هذه الحوزة، ويتخرج كل سنة من هذه الحوزات المئات من العلماء الذين يعودون إلى بلادهم ﴿**وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾.

الفهرس